حسام النفس

لما قتل عنترة مسحل بن طراق الكندي، أرسل عبلة مع مالك بن زهير إلى ديار عبس، وتخلف هو مع بسطام بن قيس الشيباني، وكان قد تذكر أعمال عمه وبغضه له، فقال:

[الوافر]

إذا رِيحُ الصَّبَا هَبّتْ أصِيلا،
شَفَتْ بهُبُوبها قَلْباً عَليلا(١)
وَجَاءَتْني تُخَبّرُ أنّ قَوْمي،
بمَنْ أهْوَاهُ، قَدْ جَدّوا الرّحيلا(٢)
وَمَا حَنّوا عَلى مَنْ خَلّفُوهُ
بوَادِي الرّمْلِ مُنْطَرِحاً جَديلا(٣)
يحِنُّ صَبَابَةً وَيهيمُ وَجْداً
إلَيْهمُ كُلّمَا سَاقُوا الحُمُولا(٤)

(١)، (٢) يبدأ الشاعر بمطلع وجداني يكشف عن مدى معاناته؛ فالصبا، ذلك الهواء الرقيق العليل، أحيا في الشاعر عند الأصيل قلباً أرّقه الشوق لما تحمله من أخبار سارة، إنها تخصّ بني قومه، إنهم جادون في رحلة العودة إلى الديار، ومن بينهم من يحبّ.

(٣)، (٤) إن قومه يفتقدون إلى الحنان والعطف، لقد تركوا الشاعر خلفهم بوادي الرمل ضعيفاً لعشقه وصبابته وشدّة حبّه لمن يحملونه معهم، فهم دائمو الترحال يسوقون الركب لا يهتمون لمن تركوه.

أَلا يـا عَـبْـلَ! إنْ خـانُـوا عُـهُـودي
وَكـانَ أبـوكِ لا يَـرْعَـى الـجَـمـيـلا[١]
حَـمَـلْـتُ الـضَّـيْـمَ وَالـهِـجْـرَانَ جُـهـدي
عَـلـى رَغْـمـي وَخَـالَـفْـتُ الـعَـذولا[٢]
عَـرَكْـتُ نَـوَائِـبَ الأيّـامِ حَـتـى
رَأيْـتُ كَـثـيـرَهَـا عِـنْـدِي قَـلـيـلا[٣]
وَعَـادَانـي غُـرَابُ الـبَـيـنِ حَـتـى
كَـأنـي قَـدْ قَـتَـلْـتُ لَـهُ قَـتـيـلا[٤]
وَقَـدْ غَـنَّـى عَـلـى الأغْـصَـانِ طَـيـرٌ
بـصَـوْتِ حَـنـيـنِـهِ يَـشْـفـي الـغَـلـيـلا[٥]
بـكَـى فـأعَـرْتُـهُ أجْـفَـانَ عَـيْـنـي
وَنـاحَ فَـزَادَ إعْـوَالـي عَـوِيـلا[٦]

(١)، (٢) يخاطب الشاعر عبلة معلناً تبرّمه وإنكاره لما يقوم به والدها، إنه لم يرع الجميل، رغم التضحيات العظام التي يقدمها في استرضائه، فهو يتحمّل الأذَى من جانب والدها والهجران من جانبها ويصبر رغم ما يلقاه ورغم إرادته، وذلك ليكيد العذول وإن كانت مخالفته لطبيعته التي ترفض الضيم وتأباه.

(٣) النوائب: المصائب. الشاعر هو دائماً في حرب لا يهدأ أوارها، لقد تصدّى لمصائب الدهر، فإذا به يتغلّب عليها، وتصغر قليلاً قليلاً حتى اضمحلّت، ولم يعد لها تأثير يذكر في حياته.

(٤) غراب الشؤم والهجر على عداء مع الشاعر، فحتّم عليه بالبعد المزمن كأن الشاعر قتل له أحد أفراخه.

(٥)، (٦) غناء مطرب ينبعث بين الأغصان، صوت حنون فيه شفاء النفس يُوقظ ما في النفس من حنين، إنه يبكي إلفاً تركه وحيداً، وكان تجاوب وجداني =

فَـقُـلْـتُ لـه : جَـرَحـتَ صَـمـيـمَ قَـلْـبـي
وَأبْـدى نَـوْحُـكَ الـدّاءَ الـدّخـيـلا[١]
وَمَـا أبْـقَـيْـتَ فـي جَـفْـنـي دُمُـوعـاً
وَلَا جِـسْـمـاً أعـيـشُ بـهِ نـحـيـلا[٢]
وَلا أبْـقـى لـيَ الـهِـجْـرَانُ صَـبـراً،
لـكـيْ أَلْـقَـى الـمَـنَـازِلَ وَالـطُّـلُـولا[٣]
أَلِـفْـتُ الـسُّـقْـمَ حَـتـى صَـارَ جِـسْـمـي
إذا فَـقَـدَ الـضَّـنـى أمْـسَـى عَـلـيـلا[٤]
وَلَـوْ أنـي كَـشَـفْـتُ الـدّرْعَ عَـنـي
رَأيْـتَ وَرَاءَهُ رسْـمـاً مُـحـيـلا[٥]

= من قبل الشاعر، فإذا به يُشاركه بكاءه لتوحّد مأساة كلّ منهما، بل إنه يزيد عنه بكاءً وعويلاً.

(١) حوار بين الشاعر وذلك الطائر، فيه لوم وعتاب، لقد فتّق الطائر جراح قلبه الملتئمة من جديد، وكشف له ضعفه فلم يتماسك، إنه داء كتمه، فإذا به ينبع مع الدموع من قلب ملأه الألم وعذّبه الهجر.

(٢) ويتابع الشاعر عتابه، لقد استنفد دموع عينيه، ولم يبق له جسماً سليماً معافى، بل ترك له شبه جسم أبراه الهجر فبدا نحيلاً لا يقوى على شيء.

(٣) لقد ضاع الصبر في مهبّ الريح، والهجران يجثم على قلب الشاعر، كلّ همّه أن يرجع إلى مراتع الصبا ويرى المنازل المهجورة وأطلالها التي تربطه بماضٍ عزيز.

(٤)، (٥) إنها السعادة والمعايشة الدائمة للمرض، فإذا أحسّ بالصحة والعافية حمل الشاعر الإحساس بالشفاء إلى العودة إلى المرض، حتى إذا خلع الدروع عنه بدت له الحقيقة المرّة، هيكل عظيم تخلّت عنه الصحة، فبدت عظامه نافرة.

وَفي الرّسْمِ المُحيلِ حُسَامُ نَفْسٍ
يُفَلِّلُ حَدُّهُ السّيْفَ الصَّقيلا[١]

احذر محلَّ السَّوء

[الكامل]

تَمْشي النَّعَامُ بِهِ خَلاءً حَوْلَهُ
مَشْيَ النصَارَى حوْل بيتِ الهَيكَلِ[٢]
احْذَرْ مَحَلّ السَّوْءِ لا تَحْلُلْ بِهِ
وَإذا نَبَا بِكَ مَنْزِلٌ فَتَحَوَّلِ[٣]
تَكْفي خَصَاصَةَ بَيْتِنا أرْمَاحُنَا
شالَتْ نعَامةُ أيِّنَا لَمْ يَفْعَلِ[٤]

---

(١) ورغم الضعف الطارئ على جسم الشاعر، فإن لديه نفساً قوية ماضية تقطع كلّ المصائب والأزمات بعناد وصلابة، كأنها سيف يتصدّى لسائر السيوف بعزم وقوّة.

(٢) تطوف النعام حول الديار المهجورة كما يطوف النصارى حول بيوت العبادة تبرّكاً، بصمت وهدوء وخشوع.

(٣) يُبدي الشاعر نصيحة للبشر؛ فعلى المرء أن يتجنّب محلّ السوء وألّا ينزل فيه ضيفاً، وفي حال أنك مكروه في منزل فلا بدّ للمرء من الانتقال حفاظاً على سلامة قد يفقد حياته إن لم يتحوّل عنه.

(٤) الخصاصة: الفقر. شالت نعامة أينا: ماتت. يفخر الشاعر بأن مصدر الرزق في قبيلته رماحهم، إنها تسدّ عوزهم، فمصدر أرزاقهم الحرب، وذلك منطق الجاهلية والشعوب التي يسودها الظلم، وأن لا يتّخذ ذلك مذهباً في حياته فلْتمت نعامته جوعاً وعطشاً.